بهمذان والجبال فاستقبله يوماً ولم يترجل له وقال له ايها الصاحب اريد ان اترجل للخدمة ولكن العلم يأبى ذلك وكان يكتب في عنوان كتابه الى الصاحب « داعيه عبد الجبار ابن احمد » ثم كتب « وليه عبد الجبار بن احمد » ثم كتب « عبد الجبار بن احمد » فقال الصاحب لندمائه اظنه يؤول امره الى ان يكتب « الجبار » .

وقال الصاحب : مافظعني الا شاب بغدادي ورد علينا الى اصبهان فقصدني فاذنت له وكان عليه مرقعة وفي رجليه نعل طاق فنظرت الى حاجبي فقال له وهو يصعد اليّ اخلع نعلك فقال ولم لعلني احتاج اليها بعد ساعة فغلبني الضحك وقلت اتراه يريد ان يصفعني بها .

جهلة قدره

الصاحب من افراد الوزراء الذين علت منزلتهم وعظمت قدرتهم ووقرت مهابتهم في نفوس الناس فانه كان يحب التعاظم والبذخ والخيلاء ولقد مر فيما تقدم من سيرته حوادث تدل على ذلك وفيما يأتي تتمة لما سبق .

كان الرجل مفتوناً بمظاهر الابهة والعظمة فاذا بدا منه

ما يدل على الرفق واللين والمباسطة فانه يرمي من ورائه لزيادة اعجاب الناس به وتعظيمه فلقد روي عنه انه كان يلبس القباء تخففاً بالوزارة وانتساباً معها الى الجندية وهذا نوع من الذهاب بالنفس ظاهره الدماثة وباطنه الزهو ·

قال ابو النصر بن خواشاده : ما غبطت احداً على منزلة كما غبطت الصاحب ابا القاسم ابن عباد فانا كنا مقيمين بظاهر جرجان مع مؤيد الدولة على حرب الخراسانية فدخل الصاحب الى داره في البلد آخر نهار يوم لحضور المجلس الذي يعقده لاهل العلم وتحته دابة رهواء وقد ارسل عنانه فرأيت وجوه الديلم واكابرهم من اولاد الامراء يعدون بين يديه كما تعدو الركابية ·

وقال الوزير ابو سعد منصور بن الحسين الآبي : اما امر الوزارة في ايام فخر الدولة فكانت اشهر من ان يحتاج الى ذكرها فان اول وزرائه كان كافي الكفاة واسنة الاقلام وعذبات الالسنة تكل دون ايسر اوصافه وادنى فضائله فان ابناء الملوك والامراء والقواد وسائر من ساواهم من الزعماء الكبار مثل اولاد مؤيد الدولة و · · · يحضرون باب داره فيقفون على

دوابهم مطرقين لا يتكلم واحد منهم هيبة واعظاماً لموضعه الى ان يخرج احد خلفاء حجابه فيأذن لبعض اكابرهم ويصرفهم جملة فكان من يؤذن له في الدخول يظن انه بلغ الآمال ونال الفوز بالدنيا والآخرة فرحاً ومسرة وشرفاً وتعظيماً فاذا حصل في الدار واذن له في الدخول الى مجلسه قبل الارض عند وقوع بصره عليه ثلاث مرات او اربعاً الى ان يقرب منه فيجلس من كانت رتبته الجلوس الى ان يقضي كل واحد منهم وطره من خدمته ثم ينصرف بعد ان يقبل الارض ايضاً مراراً . ولم يكن يقوم لاحد من الناس ولا يشير الى القيام ولا يطمع منه احد في ذلك ونزل بالصيمرة عند عوده من الاهواز فدخل عليه شيخ من زهاد المعتزلة يعرف بعبد الله بن اسحق فقام له فلما خرج التفت كافي الكفاة وقال ما قمت لاحد مثل هذا القيام منذ عشرين سنة وانما فعل ذلك به لزهده فانه كان احد ابدال دهره . فاما العلم فقد كان يري من هو اعلم منه فلا يحفل به . واما هيبته في الصدور ومخافته في القلوب وحشمته عند الصغير والكبير والبعيد والقريب فقد بلغت الى ان كان صاحبه نخر الدولة ينقبض عن كثير مما يريده بسببه

ويمسك عمـا تشره اليه نفسه لمكنه وقد ظهر ذلك للناس بعد موته وانبساط نخر الدولة فيما لم يكن من عادته فعلم انه كان يزم نفسه لحشمته ثم كان يحله محل الوالد اكرماً واعظاماً ويخاطبه بالصاحب شفاهاً وكتاباً . فاما اكابر الدولة فكان الواحد اذا رأى احد حجابه بل احد الاصاغر من حاشيته فان فرائصه كانت ترتعد وجوانحه كانت تصطفق الى ان يعلم ما يريده منه ويخاطبه به . وتظلمت اليه امرأة من صاحب لفولاذ بن ما نادر وذكرت انه ينازعها في حق لها فما زاد على ان التفت الى فولاذ وكان في موكبه يسير خلفه فبهت وتحير وارتعد ووقف ولم يبرح الى ان سار كافي الكفـاة ثم ارسل مع المرأة من ارضاها وازال ظلامتهـا ومثل هذا كثير . وأما اسبابه وحاشيته وهيبته ورتبته فان من ايسرها ان كان له عدة من الحجاب منهم من على مربطه ثلاثمـاية رأس من الدواب او ما يقار بها وكانت احوال بلكا الحاجب تزيد على ذلك زيادة كثيرة .

وقال الوزير ابو سعد ايضاً : كان نصر بن الحسن بن الفيروزان خال نخر الدولة مقداماً شجاعاً قليل المبـالاة قد

استعصى على فخر الدولة واقتطع قطعة من بلاده وتغلب عليها واحتال على جماعة من عسكره فقتلهم بانواع القتل ثم كسر له عدة عساكر الى ان تكاثرت عساكر فخر الدولة فكسرته وشتت جموعه وهرب نحو خراسان حتى صار الى اسفرايين ثم بدا له فورد الري ليلة الجمعة لست بقين من شوال سنه ٣٨٤ وقصد في الليل باب كافي الكفاة مستجيراً به ومستعطفاً له وكنت في هذه الليلة بحضرة كافي الكفاة فأتاه الحاجب وقد مضى هزيع من الليل فاخبره بوقوف نصر بن الحسن ابن الفيروزان على الباب خاشعاً متضرعاً فرأيته قد تحير في الامر ساعة ثم راسله بان السلطان الاعظم (يعني فخر الدولة) ساخط عليك ولا يجوز لي ان آذن لك في دخول داري الا بعد ان ترضاه وتستعطف قلبه فاذا عفا عنك ورجع لك فالدار بين يديك وانا معين لك فعاد الحاجب اليه بذلك ورجع فقال انه امتنع من العود وقال انما جئت الى الصاحب لائذا به ومنقطعاً اليه ولا اعرف غيره وهو يحتاج ان يدبر امري ويجيرني ويحامي عليّ ويذب عني واستمر على الالحاح في الخضوع والاجتهاد أن يأذن له في الدخول وانتقل من

الباب الكبير الى باب الخاصة وسأل واجتهد .

رضاه عن نفسه

أما رضاه عن نفسه فقد ادى به الى الاعجاب والتيه وما مر بك من سيرته يدل على انه كان يذهب بنفسه بعيداً حتى يوردها موارد الغرور ويستحسن من نفسه ما يستقبحه من غيره فانه كان يعيب التيه و يتيه ولا ينصف مناظره ومما رواه عنه ابو حيان التوحيدي في هذا الباب هو ادنى الى الرقاعة كقوله « أنا واحد هذا العالم وانت بما تسمع عالم » وكقوله : « كان ابو الفضل — ابن العميد — سيداً ولكن لم يشق غبارنا ولا ادرك شوارنا ولا فسح عذارنا ولا عرف غرارنا لا في علم الدين ولا فيما يرجع الى نفع المسلمين فاما ابنه فقد عرفتم قدره في هذا وفي غيره طياش قلاش ليس عنده الا قاش وقماش مثل ابن عياش والهروي الحواش . وولدت والشعرى في طالعي ولولا دقيقة لادركت النبوة ، وقد ادركت النبوة اذ قمت بالذب عنها والنصرة لها فمن ذا يجارينا او يبارينا ويغارينا ويسارينا ويشارينا .

وعجب الصاحب بنفسه ظاهر في افعاله وشائع في اقواله حتى انه يتيه على من يتغزل به كقوله :

وشادن جمـاله تقصر عنه صفتي
اهوى لتقبيل يدي فقلت لا بل شفتي

وقال ابو حيان « ... ومع هذا يخدعه — اي الصاحب — الصبي ويخلبه الغبي لان المدخل عليه واسع والمأتى اليه سهل وذلك بان يقال : مولانا يتقدم بان اعار شيئاً من كلامه ورسائله منظومه ومنثوره فما جبت الارض اليه من فرغانة ومصر وتفليس الا لاستفيد كلامه وافصح به واتعلم البلاغة منه لكأنما رسائل مولانا سور قرآن وفقره فيها آيات فرقان واحتجاجه من اثنائها برهان فسبحان من جمع العالم في واحد وابرز جميع قدرته في شخص . فيلين عند ذلك ويذوب ويلهى عن كل مهم وينسى كل فريضة عليه ويتقدم الى الخازن بان يخرج اليه رسائله مع الورق والورق ويسهل الاذن عليه والوصول اليه والتمكن من مجلسه .

وقال ابو حيان ايضاً: ناظر (الصاحب) بالري اليهودي رأس الجالوت في اعجاز القرآن فراجعه اليهودي فيه طويلا ومـاتنـه

قليلا وتنكد عليه حتى احتد وكاد يتقد فلما علم انه قد سحر بنوره [1] واسعط انفه احتال طلباً لمضادته ورفقاً به في مخاتلته فقال ايها الصاحب فلم تتقد وتستشيط وتلتهب وتختلط كيف يكون القرآن عندي آية ودلالة ومعجزة من جهة نظمه وتأليفه فان كان النظم والتأليف بديعين وكان البلغاء فيما تدعي عنه عاجزين وله مذعنين وها انا اصدق عن نفسي وأقول ما عندي ان رسائلك وكلامك وفقرك وما تؤلفه وتباده به نظما ونثراً هو فوق ذلك او مثل ذلك وقريب منه وعلى كل حال فليس يظهر لي انه دونه وان ذلك سيستعلي عليه بوجه من وجوه الكلام او برتبة من مراتب البلاغة . فلما سمع ابن عباد هذا فتر وخمد وسكن عن حركته وانحمص ورمه به وقال ولا هكذا ياشيخ كلامنا حسن وبليغ وقد اخذ من الجزالة حظاً وافراً ومن البيان نصيباً ظاهراً ولكن القرآن له المزية التي لا تجهل والشرف الذي لا يخمل واين ما خلقه الله على اتم حسن وبهاء مما يخلقه العبد بطلب وتكلف . هذا كله يقوله وقدخبا حميه وتراجع مزاجه وصارت ناره رماداً مع اعجاب شديد قد شاع في اعطافه وفرح

---

(١) كذا بالاصل ولعله سجر تنوره .

غالب قد دب في اسارير وجهه .

وقال هلال بن المحسن : وردالى الصاحب رجل من اهل الشام ،فكان فيما استخبره عنه، رسائل من نقرأ عندكم ؟ فقال رسائل ابن عبد كان ،قال ومن؟ قال رسائل الصابي، وغمزه احد جلسائه ليقول رسائل الصاحب فلم يفطن فرآه الصاحب فقال تغمز حماراً لا يحس .

وقال الثعالبي في برد الاكباد : قال الصاحب ابن عباد : كتّاب العصر اربعة الاستاذ الرئيس يعني ابن العميد والاستاذ ابو القاسم يعني عبد العزيز بن يوسف وابو اسحق يعني الصابي ولو شئت لذكرت الرابع « يعني نفسه »

حبه للعرب وبغضه للشعوبية

الصاحب وان كان فارسي النسب فانه عربي الدين والادب. وقد كان حبه للاسلام واطلاعه على علوم الدين واعجابه بادب العرب غالباً على عصبيته الفارسية لذلك فهو يحب العرب و بغض الشعوبية من الفرس ومن شعره في هذا المعنى قوله في رجل يتعصب للعجم على العرب ويعيب العرب بأكل الحيات :

يا عائب الاعراب من جهله لأكلها الحيات في الطعم

فالعجم طول الليل حيانهم تنساب في الاخت وفي الام

علمت مما تقدم ان الصاحب لم يكن له من الاولاد غير بنت زوجها من الشريف ابي الحسين علي بن الحسين الحسني فلما اتته البشارة بسبطه عباد انشأ يقول :

احمد الله لبشرى اقبلت عند العشي
اذ حباني الله سبطاً هو سبط للنبي
مرحباً ثمة اهلاً بغلام هاشمي
نبوي علوي حسني صاحبي

ثم قال :

الحمد لله حمداً دائماً ابدا اذ صار سبط رسول الله لي ولدا

ومثل ذلك ما حدث به بديع الزمان الهمذاني عن نفسه قال : كنت عند الصاحب ابن عباد فاتاه رجل بقصيدة يفضل فيها العجم على العرب وهي :

غنينا بالطبول عن الطلول وعن عنس عذافرة ذمول
واذهلني عقاري عن عقاري فني است ام القضاة مع العدول
فلست بتارك ايوان كسرى لتوضح او لحومل فالدخول
وضب بالفلا ساع وذئب بها بعوي وليث وسط غيل

اذا ذبحوا فذلك يوم عيد وان نحروا ففي عرس جليل
يسلون السيوف برأس ضب هراشاً بالغداة وبالاصيل
بأية رتبة قدمتموها على ذي الاصل والشرف الجليل
الا لو لم يكن للفرس الا نجار الصاحب العدل النبيل
لكان لهم بذلك خير عز وجيلهم بذلك خير جيل

فلما لمغ الى هنا قال له الصاحب قدك ، ثم اشرأب ينظر الى الزوايا واطراف القوم فلم يرني وكنت في زاوية من زوايا البيت فقال اين ابو الفضل فوثبت وبست الارض بين يديه فقال اجبه عن ثلاثتك ، قلت وما هي ؟ قال ادبك ونسبك ومذهبك فقلت ولا مهلة للقول الا بما تسمع :

اراك على شفا خطر مهول بما اودعت نفسك من فضول
طلبت على مكارمنا دليلا متى احتاج النهار الى دليل
السنا الضاربين جزى عليهم فاي الخزي اقعد بالذليل
متى فرع المنابر فارسي متى عرف الاغر من الحجول
متى علقت وانت بهم زعيم اكف الفرس اعراف الخيول
تخرت بملء ماضغتيك فخراً على قحطان والبيت الاصيل
وحقك ان تبارينا بكسرى فما ثور ككسرى في الرعيل

فخرت بنحو ملبوس واكل وذلك فخر ربات الحجول
تفاخرهن في خـد اسيل وفرع من مفارقهـا رسيل
فامجد من ابيك اذا اثرنا عراة كالليوث وكالنصول

قال : فلما اجبته بهذه الابيات نظر الصاحب ابن عباد الى الرجل فقال : كيف ترى ؟ فقال : لو سمعت به ماصدقت؛ قال : فاذن جائزتك ان وجدتك بعدها في مملكتي امرت بضرب عنقك ، ثم قال : لاترون رجلاً يفضل العجم على العرب الا وفيه عرق من المجوسية يرجع اليها .

وسواء اصح وقوع هذه الحادثة ام كانت ضرباً من مقامات بديع الزمان فانها تصور حب الصاحب للعرب والعربية و بغضه للشعوبية

ما اخذ عليه في اخلاقه وسيرته

حسنات الصاحب كثيرة جداً وما اخذ عليه من الزلات والهنات مروي عن ابي حيان التوحيدي الذي الف كتابا ثلب فيه ابن العميد والصاحب سماه مثالب الوزيرين وابو حيان معروف بالتزيد والوضع والمبالغة لاسيما فيما كتبه على الصاحب فانه تعصب عليه كثيراً وسلبه محاسنه كما يقول ابن خلكان .